الى الاستاذ علي الطنطاوي

بقلم : الاستاذ احمد صندوق

قال عبد الملك بن مروان : ما يسرني أن أحداً من العرب ممن لم يلدني ولدني الا عروة بن الورد وقل ايضاً : من زعم أن حاتماً اكرم الناس فقد ظلم عروة ابن الورد . وقال الرواة : أصاب عروة في غزاة له امرأة فاتخذها لنفسه فمكثت عنده بضع عشرة سنة وولدت له اولاداً وهو لايشك انها ارغب الناس فيه ثم قالت له لو حججت بي فأمر على أهلي وأرامم . فحج بها ورآها اهلها فاتفقت معهم على أن يطلبوا منه تحريرها ونزوحها . ولما قابلوه بذلك أجابهم الى طلبهم معتمداً على ما تظهر له من المودة وقال : خيروها فان اختارتني انطلقت معي الى ولدها وإن اختارتكم انطلقتم بها . فلما حرروها وخيروها اختارت اهلها . ثم أقبلت عليه فقالت : يا عروة والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت ستراً على بعل خير منك وما مر علي يوم منذ كنت عندك الا والموت أحب إلي من الحياة معه الا أسر فارجع راشداً الى ولدك وأحسن اليهم .

هذه امرأة تركت بعلها وضحت بفلذ اكبادها وآثرت البقاء في حمى يقتلها الشوق ويقطعها النوى رغبة منها في الحرية وفراراً من الاسر الذي اعتبرته شراً من الموت فالحرية شمس يجب ان تشرق على جميع الناس وهي الحد الفاصل بين الانسان والحيوان وقلما قام نزاع بين اثنين ألا وكان غمط الحرية أحد اركان هذا النزاع . وأي حرية تضاهي حرية العقيدة في نظر الشرقي إذا كنا نسلم أن الاديان السماوية شرقية ، وأي امرئ أولى من الشرقي بالدفاع عن حرية عقيدته :

وقد ابدى الاسلام اهتماما خاصاً لهذه الناحية فقام يدافع عن حرية العقائد ونهى عن التعرض لها بقوله تعالى : لا إكراه في الدين ، لكم دينكم ولي دين ، لاتجادلوا اهل الكتاب لاجدال في الحج . وغير ذلك من الآيات التي تحظر التعرض للمخالفين في اصول العقائد فما بالك بمن يخالف في امور ليست من ضروريات الدين ولا هي من شروطه الاساسية .

اللهم إن هذا لايرضي الاسلام ولاعقلاء المسلمين : حداني الى كتابة هذه الكلمة ما أراه بين الفينة والفينة في مجلات اتاخصصها اصحابها لنشر الثقافة بين الناطقين بالضاد ولتكون وحدة في الافكار والمقاصد والآراء ولكون واسطة للتآلف والتآزر بين اقطار العرب الشقيقة ووقفوها لخدمة الاداب والعلوم والفنون .

وليت شعري ما الفائدة التي يجنيها المسلمون عامة من هذه المقالات التي تنشر بين الشيء الجديد باسم الاصلاح وهل هي أدوات للاصلاح والترميم أم معاول لتهديم كيان هذه الامة التي يكيد لها الاعداء من كل جانب .

وأي خطأ اكبر من أن نجادل في فاضل ومفضول ونخوض في أمور عقيمة قد أكل الدهر عليها وشرب . بعد أن لم نحصد منها إلا الشنآن والعداوة والبغضاء حتى انتقصت اطرافنا ودالت دولنا وتفرقت كلمتنا وذهبت ريحنا . والعدو لنا بالمرصاد يتكالب على ابتلاعنا ونحن في غمرتنا ساهون ..

وعما يراد بنا غافلون نقدم له سلاحنا بأيدينا وهو التضامن الذي لانملك غيره في هذه الايام العصيبة . فهل رد كيد عدونا كون الحق مع أي فريق من هؤلاء المتناحرين ، عذرنا بعض المعممين الجهلاء ودعاة التفرقة والسوء من كلا الفريقين اولئك الذين يثيرون الضغائن ويبثون الاحقاد ويضرمون نيران الفتن باسم الغيرة على الدين والدين من ذلك براء وقلنا إن هؤلاء تقتصر دعاياتهم على بعض أوكار اتخذوها بؤراً للتفيذ مآربهم وعلى بعض الكتب الصفراء البالية التي لايستسيغ قراءتها إلا القليل من اتباعهم البسطاء وعلى بعض القرى البعيدة التي خيم عليها الجهل فلم تطلع عليها شمس العلم والعرفان . عذرنا هؤلاء وهؤلاء وقلنا :

والشيخ لايترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه

وان المستقبل للشبيبة الواعية التي تتلقى العلوم من مناهله العذبة فتجمع بين ثقافة الشرق والغرب فتعرف كيف ارتقت الامم وتحذو حذوها وتضرب بهذه الاساطير عرض الحائط . وتنبذ هذه الدعايات المغرضة نبذ النواة فما بالنا نرى بذور هذه التفرقة قد انتقلت الى انكار هذه الناشئة وأخذت تسممها عن طريق الكتب الحديثة والمجلات الحديثة وعن طريق أعلام أدبائها وخيرة رجالها المفروض فيهم أن يسيروا بسفينتها الى

ساحل السعادة والرفاه كأن الله كتب على هذه الأمة المنكودة ألا تنشط من عقالها ولا تقوم من صرعتها .. فمهلا مهلا ياقوم ورفقاً بهذه الأمة المسكينة وهل هي غزوات للروم صوائف وشوات لايعوذ الجيش الصائف حتى يحل محله الجيش الشاتي ولا يتخلف عن الميدان كهل حطمته السنون حتى يسارع اليه شاب كامل العدة والقوة ؟ أو ليس من الغرابة بمكان ان تهاجر شرذمة من شذاذ اليهود الى امريكا فتخاطبهم بنفسها على اختلاف بينهم وتباين في العرق والشعور والعقيدة ثم تفسح لهم المجال وتطلق لهم عنان الحرية حتى تكاد تصبح دفة السياسة اليوم بأيديهم ويفتحوا على سائبنا فاسطين بلاد آبائنا وأجدادنا التي روينا ثراها بدمائنا ايام الفتوح وأزمان الحروب الصليبية والتي لانزال نرويها ونسقيها بدماء جديدة غالية في كل فرصة ومناسبة . يتكالب هؤلاء الغرباء على انتزاعها فيساعدهم اولئك ليفوزوا بها لقمة سائغة ونحن نسعى بأيدينا لتقطيع أوصالنا وجدع انوفنا فهذا لايجوز أكل ذبيحته لانه يرمي بتفضيل فلان أو ذمه وهذا حلال الدم لأنه يتهم بموالاة فلان او البراءة منه : إن كل كتابة في هذا الشأن من كلا الطرفين أيا كان مصدرها وفي أي كتاب حديث سجات أوآنة مجلة حديثة سطرت : إنما هي فتنة . والفتنة أشد من القتل .

وما يسوء ويؤلم ان تعنى الأمة بالشقاء ويأتيها الداء من حيث تتوقع الدواء ... نقد كانت اول نفخة في بوق هذه التفرقة البغيضة (ولا اقول عمداً) من قبل العلامة الكبير الاستاذ [أحمد أمين] صاحب كتب فجر الاسلام وضحى الاسلام. هذه النفخة التي كانت سبباً لهذه الضجة القائمة الآن . هذه الكتب التي اعيد طبعها مراراً لاقبال السواد الاعظم من شباب الأمة المثقف على قراءتها واخذ اخبارها عنه كحقائق ناصعة نظراً لمكانته العلمية ، هذه الكتب التي كتب في بعض فصولها طعناً صريحاً في أئمة الشيعة وعقائدها . وها انا اورد بعض ما شحن به كتبه هذه ..

١ ـ كان جعفر الصادق (احد ائمة اهل البيت) يشتغل بالكيمياء والزجر والفال .

٢ ـ ان التشيع كان مأوى يلجأ اليه من اراد هدم الاسلام .

٣ ـ اليهودية ظهرت في التشيع .

٤ ـ النصرانية ظهرت في التشيع .

٥ ـ تحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله والحلول .

٦ ـ التشيع عش الشعوبية الذي يأوون اليه وستارهم الذي يستترون به .

٧ ـ ان الشيعة لاترى على النساء عدة وتقول غلط جبرئيل ولا تأكل لحم الجزور . هذه بعض المثالب التي شحن بها الاستاذ كتابه في القرن العشرين ونسبها الى ائمة اهل البيت وشيعتهم من كبار الصحابة والتابعين كسلمان وابي ذر وعمار وغيرهم . ومن اراد الاطلاع عليها مفصلة مع ردودها فليرجع الى الجزء الاول من كتاب اعيان الشيعة الطبعة الثانية للعلامة السيد محسن الامين من ص ١٩٠ الى ٣٦٢ .

وقد ناقشه غير واحد من علماء الشيعة في العراق والشام في اسانيد اخبار رواياته واخطائها درءاً للفتن وخدمة للحق فاعتذر بعدم الاطلاع وقلة المصادر ووعد باصلاحها ولكنه كرر الطبعة ولم يف بوعده . ولو فعل لكفى الأمة فتنة هي اشد الناس حاجة لاجتنابها ولقام بما يفرضه عليه الواجب الديني والتاريخي والقومي فقد اخذ الله على العلماء ان يكونوا اداة اصلاح وتنوير لا اداة فتنة وتغرير .

وعلى هذا اطلقت الفتنة من عقالها وسلت الأقلام بحق وبغير حق حتى قام الاستاذ المحترم (علي الطنطاوي) فأدلى دلوه في الدلاء وطلع على علماء الشيعة بكلمة نشرها في العدد ٧٢٢ في مجلة الرسالة الغراء وفيها يغضب غضبة مضرية فيخرج عن حدود المناقشة ونعوذ بالله ان نكون ممن تأخذه العزة بالاثم فيأخذ البرىء بالمتهم لاسيما وهو يعلم ان جمهور الشيعة لم ينكروا على اخوانهم السنة سكوتهم عما كتبه الاستاذ (احمد امين) ولم يدعوا ان قوله في ائمة البيت وشيعتهم يعبر به عن رأي اخوانه السنة كافة ... (وهذا انصاف من الاستاذ الطنطاوي يستحق عليه التقدير) .

ومما ذكره : وجمهور اهل السنة لايعلمون عن الشيعة الا انهم حزب سياسي ألف في وقت من الأوقات لتأييد احد المرشحين للخلافة الخ ـ وفقه الله ـ ان الخلاف بين الطائفتين ليس سياسياً كما يزعم وان الصحف والمجلات ليست مثار نقاش فيه فليرجع اليه في مظانه ان كان يجهله وان كان

يتجاهله فرحم الله القائل :

اذا كنت لا تدري فتلك مصيبة
وان كنت تدري فالمصيبة أعظم

ثم قدم اقتراحات للاتفاق منها : أن يترك الكلام في التفضيل لأن ذلك ليس من اركان الايمان وليس من أسس الدين ، وليس له في حياتنا نتيجة عملية . وان نترك كتب الخلاف التي تثير الضغائن .

ولقد أحسن في دعوته هذه التي جاءت متأخرة فقد سبقه اليها علماء الشيعة وطالما دعوا اليها . وليسمح لنا ان نصارحه ان المعول على الأعمال لا على الأقوال . فأمامنا ميثاق الدول الغربية على عدم التدخل بالنزاع الداخلي في اسبانيا قبل الحرب الأخيرة وكلنا نعلم كيف كانت اسبانيا ميداناً لتجارب أسلحة الدول الفتاكة رغم ميثاقها المؤكد . وامامنا ايضاً عدة مطاعن لكثير من كتاب العصر الحاضر أملاها عليهم الطيش وحب التقليد والظهور . فكلما حاول كاتب ان يظهر لا يجد سلماً او طريقاً إلا ثلب الشيعة والافتراء عليها . وبهذ وحده يحوز لقب المحقق المدقق .

نعم ان ترك الكلام في التفضيل واجب ضروري على ان يكون فعلياً عاماً لا على فئة دون فئة شاملا لكل ناحية إذ ما من خلاف في فرع من الفروع الا ومنشؤه هذا التفضيل . فليترك كل فريق وعقيدته وليتجنب كل فريق مس شعور الآخر . اما ان يكف فريق ويهاجم فريق فهذا مالا تقبله شرعة الانصاف ولا مصلحة الوطن وعلى هذا فالفصول التي عقدها الاستاذ « احمد امين » يجب ان يعيد النظر فيها . والكتاب الذي طبعه موسى جار الله (الوشيعة) يجب ان يمنع أمثاله من امثاله ، والكتب او المقالات التي ينشرها الفريق الآخر يجب ان يعمل على منعها .

اما الكتب التي ينبغي ان تنبذها فما ادري من الذين يتولون تأليفها ونشرها قديماً وحديثاً ام الشيعة ام السنة ؟

وما احرانا اليوم ونحن في مستهل عهد جديد ان نثوب الى رشدنا ونثبت للملأ الغربي كفاءتنا فنضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه نفخ ابواق التفرقة ..

وقد جمعتني مناسبة مع احد افراد الاقليات فأظهر تخوفه من هذا العهد الجديد وعبثاً حاولت إقناعه بأن الأمة ارتفع فيها مستوى الوعي فقد ابتسم قائلا : على معاملة الطوائف التي ليس لها اجنبي يشد ازرها يجب ان يكون مقياس وعي الأمة ونوايا اولي الأمر منها .. وتلك لعمري نعرة شعوبية وكلمة حق يراد بها باطل ولكنها على كل حال قيمة يجب ان تستبرعي انتباه كل غيور على مصلحة الأمة .

واخيراً انقل نقرة من كلمة الاستاذ (الطنطاوي) المذكورة بعد قوله : فما بالنا نشتغل اليوم بمسائل انتهت من ثلاثة عشر قرناً ؟ هذه الكلمة التي حرت في التوفيق بينها وبين ما دعا اليه من وجوب عدم البحث في التفضيل والتي لم يشبه آخرها اولها بل سرعان ماسال به الهوى ومشى به يراعه الى نكث ما فتل ونقض ما ابرم ثم نصب نفسه حكماً بين اثنين من عظماء الصحابة دون ان يرقب فيها إلا ولا ذمة .. قال : « على ان اهل السنة لا يطيلون النزاع في افضلية ابي او بكر علي ولا يرون لذلك خطراً في الدين لأنه ان كان الفضل عند الله فالله اعلم به وان كان في الادارة والسياسة فقد ولي الرجلان والحكم الآن للتاريخ واهله :) .

هذا ادب جديد بلون جديد واسلوب جديد يصدر من حاكم جديد ولا يسعني تجاه هذا الأدب العالي الا ان اهنئه على هذا الفتح المبين في حسم المشكلات .

فبخ بخ ايها القاضي النزيه لقد حكمت فعدلت . بخ لقلمك السيال نلو رآه حبيب لما عداه بقوله :

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلي والمفاصل

وما احراك ان تجاب عن علي بقول الأول :

لا تفخرن على قوم عرفت لهم
نور الهدى وعرين العز ذي الخيس
قوم لهم خص ابراهيم دعوته
اذ يرفع البيت سوراً فوق تأسيس
نحن الذين ضربنا الناس عن عرض
حتى استقاموا وهم اتباع ابليس
قد جربت عركي في كل معترك
غلب الأسود فما بال الضغابيس
وابن اللبون اذا ما لز في قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس

ولكنا نترك الحكم عليك فيما اقترفته في فقرتك هذه من أدب رفيع لله وللتاريخ .

دمشق — احمد صندوق